الفصل التاسع بعد المئة

الطبقة المملوكة

وأدنى الطبقات منزلة في المجتمع ، هي الطبقة التي تحترف الحرف ، وطبقة الرقيق ، أي الطبقة المملوكة ، التي تساوي الحيوان في كونها مخلوقات حية مملوكة لغيرها ، ليس لها في هذه الحياة حرية ولا رأي ولا اختيار . فقدت حريتها بالرق ، وصارت ملك سيدها ، وهي وما تنتجه ملك للمالك ، ويدخل في ذلك نسلها الى الأبد ، إلا اذا منّ المالك على عبده بفك رقبته ، فيصير حراً، وتنتقل الحرية الى نسله كذلك .

والرقيق سلعة من سلع السوق ، تباع وتشترى كما تباع وتشترى أية سلعة أخرى . وليس لها سعر ثابت معين ، انما يتوقف ثمنها على عمر تلك السلعة وعلى درجتها من الجمال وعلى نوع جنسها وعلى حذق ومهارة ودرجة فطنة وذكاء تلك السلعة الآدمية ، وعلى الأعمال التي تتمكن من القيام بها . ولم نعثر على نصوص جاهلية فيها أسعار الرقيق ، أما أخبار أهل الأخبار ، فقد ذكرت في بعض المناسبات أسعار بعض الرقيق ، فساعدتنا بذلك على تكوين رأي عن سعر هذه البضاعة الحية عند ظهور الاسلام .

فقد ذكرت كتب السير والتواريخ والصحابة ، أن (خديجة) ملكت (زيد ابن حارثة) اشتراه لها (حكيم بن حزام بن خويلد) ، بسوق عكاظ بأربعمائة درهم[1] . وذكرت أن (أبا بكر) اشترى (بلال بن رباح) مؤذن الرسول

---

١ ابن سعد ، طبقات (١/٤٩٧) ، الاحكام السلطانية ، لأبي يعلى (١٨٥) .

وهو من الحبش ، أي من الزنوج بخمس أواق ، وقيل بسبع أواق ، وقيل بتسع أواق ، ثم اعتقه . وكان خازناً له[1] . كما كان خازناً للرسول[2] . وبيع (يعقوب) المدبر والمعروف بـ (القبطي) ،من (نعيم النحام) بثمانمائة درهم ، وقيل بسبعمائة أو تسعمائة[3] .

الاتجار بالرقيق :

وكان الرقيق إذ ذاك تجارة نشطة مربحة ، يكسب صاحبها منها ،ربحاً طيباً،وكان المتاجر بالرقيق ، يشتري تجارته من الأسواق الخارجية ، ثم يأتي بسلعته الى أسواق جزيرة العرب لبيعها فيها ، في الأسواق الموسمية وفي الأسواق المحلية الدائمة ، مثل سوق مكة ويثرب والطائف ونجران وغيرها،ففي كل هذه الأسواق وأمثالها طلب شديد على الرقيق ، لأنه وسيلة من وسائل تأدية الأعمال والانتاج . وأسواق العراق وبلاد الشأم من أهم الأسواق التي موّنت جزيرة العرب بالرقيق الأبيض . أما السواحل الافريقية،فقد موّنتها بالرقيق الأسود . وهو أرخص ثمناً من الرقيق الأبيض ، وكفاءته محدودة،وقابلياته للعمل معينة ، وهو لا يجاري الرقيق الأبيض في كثير من الأمور .

والرقيق المملوك : بين الرق . والرِق ، الملك والعبودية . ورق صار في عبودية . واسترق المملوك فرق : أدخله في الرق . والرقيق العبد ، والرق العبودة. سُمّي العبيد رقيقاً لأنهم يرقون لمالكهم ويذلون ويخضعون[4] . و (المملوك) العبد . وقيل الذي سبي ولم يملك أبواه ، أو اذا ملك ولم يملك أبواه ، فهو عبد مملكة. « وفي الحديث : ان الأشعث بن قيس خاصم أهل نجران الى عمر في رقابهم وكان قد استعبدهم في الجاهلية ، فلما أسلموا أبوا عليه ، فقالوا : يا أمير المؤمنين إنا كنا عبيد مملكة ولم نكن عبيد قن » . المملكة . أن يغلب عليهم فيستعبدهم

---

١ الاستيعاب (١/١٤٥) ، (حاشية على الاصابة) .
٢ الاصابة (١/١٦٩) ، (رقم ٧٣٦) .
٣ ارشاد الساري (٤/١١١) ، الاصابة (٣/٦٣٠) ، (رقم ٩٣٥٩) .
٤ اللسان (١٠/١٢٤) ، (رقق) ، تاج العروس (٦/٣٥٩) ، (رق) .

وهم في الأصل أحرار . والقنّ العبد ، ويقال المشترى[1] .

والعبد : المملوك خلاف الحر ، و (العبِيدّي) جماعة العبيد الذين ولدوا في العبودية . « وفي حديث عامر بن الطفيل : انه قال للنبي ، صلى الله عليه وسلم: ما هذه العبِيدّي حولك يا محمد ؟ أراد فقراء أهل الصفة ، وكانوا يقولون اتبعه الأرذلون »[2] .

و (القِن) عبد مملك هو وأبواه ، أو هو الخالص العبودة ، أو الذي ولد عندك ولا تستطيع اخراجه عنك[3] .

ومن الرقيق ، رقيق تبع الأرض ، فهو دائماً بها ، يباع معهـــا ، ويشترى بشرائها ويقال له (امتى) في لغة العرب الجنوبيين . وأما (الأدم) ، فيمثلون الطبقات الدنيا ، من عمال يشتغلون بالأرض أو بالحرف ، فهم أحرار من حيث التنقل وامتهان الحرف ، غير انهم من الطبقات الدنيا ، وكذلك الـ (غبر) ، وهم من الفقراء المعدمين ، وطبقة (مى) (امى) ، وهم الأوباش غير المثقفين[4] . ولعل لفظة (الأمى) ، قد جاءت من هذا الأصل .

ونظراً لصغر مساحة الأرضين التي كانت تزرع في الحجاز ، فإننا لا نستطيع أن نجد اقطاعاً فيه على نمط الاقطاع الذي نراه في العربية الجنوبية ، ولا نجد فيه تذمراً بين الفلاحين على نحو ما وجدناه في اليمن ، كما لا نجد سادة أمـــلاك في الحجاز لهم نفوذ واسع ، على نحو ما نجده في اليمن من تحـــكم الأقيال والأذواء وبقية الملاكين في الحكم وفي المجتمع ، وفي شؤون رقيقهم المستخـدم في استغلال الأرض . وكل ما نجده ان أشخاصاً كانوا يمتلكون ينابيع أو عيونـــاً أو آبار ، وقد زرعوا بمائها . وزراعة تعتمد على هذا النوع من الري لا يمكـن أن تكون زراعة كثيفة تدر على أصحابها ربحاً طائلاً . لذا فهي لا تحتاج الى تشغيـل عدد كبير من العبيد والأرقاء .

وكانت الغزوات والحروب أهم مورد لتجارة الرقيق . وهو مورد قديم معروف. فالغالب المنتصر يأخذ من يقع في قبضته من أسرى ، ويعده ملكاً له . وقد كان

---

١ اللسان (١٠/٤٩٣) ، (ملك) .
٢ اللسان (٣/٢٧١) ، (عبد) ، تاج العروس (٢/٤٠٩) ، (عبد) .
٣ تاج العروس (٩/٣١٤) ، (قن) .
٤ Grohmann, S. 124.

في إمكان الأسرى فك أسرهم بـ (الفداء) . أما من لم يتمكن من دفع الفدية منهم ، فيعد بحسب القانون ملكاً لآسره أو للدولة بحسب القوانين النافذة ، فيجوز في هذه الحالة امتلاك الأسير وتشغيله في الأعمال التي يكلفه إياها سيده ، ويجوز له إطلاق حريته وعدّه حرّاً معتق الرقبة وبيعه في أسواق النخاسة . وقد كان تجار العبيد يفدون الى هذه الأسواق ، ليبتاعوا منها العبيد الذين يحتاجون اليهم ، ويأخذونهم معهم الى بلادهم ، ليبيعوهم مرة ثانية في أسواق النخاسة ، لمن هو في حاجة اليهم .

والحروب مورد من موارد الرزق للمحاربين الشجعان الذين يتمكنون من أسر من يبرز لهم ، والأسر خير للآسر من محارب يقتله ، فقتله لا يفيده من الناحية المادية شيئاً ، سوى ما قد يقع في يديه من أسلابه . أما أسره ، فإنه يفيده فائدة مادية ، فعلى الأسير ترضيته بدفع فدية مرضية ، إن أراد فك أسره وتحرير رقبته، وإلا صار عبداً مملوكاً لآسره ، له أن يمتلكه وله أن يبيعه ، والغالب أنه يبيعه في حالة عجزه عن تقديم فدية ، أو عجز أهله عنها ، كي يتخلص بذلك آسره من أخطار هروبه منه ، فيأخذه الى الأسواق ويبيعه فيها .

وقد يقع القريب أسيراً في يدي قريب له ، فيكون مملوكاً لـه . ولا تسقط صلة الرحم حق التملك . وللأسير فداء نفسه حتى إن كان أخاً لآسره أو عماً له[1] . ولكن الأغلب أن يتوسط الناس بين الآسر وأسيره ، لفك أسره ، وأن تتغلب عاطفة الدم على المطالبة بالمال .

ومن أسباب الرق الفقر ، ونجد في كتب الحديث والأخبار أن عوائل باعت أولادها من ذكور وأناث ، من الفقر . وكان بعض من باع أولاده يشترط أن يكون الـولاء لهم : والولاء سبب من أسباب الارث . جاءت (بريرة) الى (عائشة) ، وكانت مكاتبة ،ولم تكن قضت من مكاتبتها شيئاً ، وكانت كاتبتهم على تسع أواق في كل سنة وقية ، فقالت : « يا أم المؤمنين اشتريني فإن أهلي يبيعوني ، فاعتقيني . قالت عائشة : نعم . قالت بريرة : إن أهلي لا يبيعوني حتى يشترطوا ولائي . قالت : لا حاجة لي فيك . فسمع ذلك النبي ، فقال : ما شأن بريرة ؟ فذكرت له شأنها ، فقال : اشتريها فأعتقيها وليشترطوا ما شاؤوا.

---

١ ارشاد الساري (٤/٣١٥) ، (باب اذا أسر أخو الرجل أو عمه هل يفادى ؟) .

فاشترتها واعتقتها . فقال النبيّ : الولاء لمن أعتق وإن اشترطوا مائة شرط[1] .

وقد وجد الرقيق في كل مكان من جزيرة العـرب ، لا سيما في المستوطنات الزراعية والقرى ومواضع التجار والتعدين ، لحاجة هذه المواضع الى الأيدي العاملة والى من يدافع عنها ، حتى انهم كانوا يقذفون بعبيدهم في الحروب للدفاع عنهم. ولما أراد (مجاعة) مصالحة (خالد بن الوليد) على (الصفراء والبيضاء ونصف السبي والحلقة والكراع وحائط من كل قرية ومزرعة) ، قال (سلمة بن عمير الحنفي) : « لا والله لا نقبل ، نبعث الى أهل القرى والعبيد فنقاتل ولا نقاضي خالداً ، فإن الحصون حصينة والطعام كثير ، والشتاء قد حضر »[2] . فجعـل (سلمة بن عمير) أهل القرى والعبيد في جملة من يتكل عليهم في قتال (خالد). ولما كان القتال بين (خالد) وبين (مسيلمة) واستحر القتل ، « قال أهـل القرى : نحن أعلم بقتال أهل القرى يا معشر أهل البادية منكم . فقال لهم أهل البادية : إن أهـل القرى لا يحسنون القتال ، ولا يدرون ما الحرب ! فسترون اذا امتزنا من أين يجيء الخلل ! فامتازوا »[3] . ونجد في رواية أخرى ان (خالداً) صالح (مجاعة) على (الصفراء والبيضاء والحلقة وكل حائط رضانا في كل ناحية ونصف المملوكين)[4] . بدلاً مـن جملـة : « ونصف السبي » التي ترد في روايات أخرى . والمملوك العبد ومن دخل في الرق . وهذا مما يدل على وجود عدد كبير من العبيد في اليمامة في ذلك العهد ، لحاجة أهل اليمامة وهم أهل زرع في الغالب اليهم ، لتشغيلهم في الأعمال الزراعية وفي التعدين والحرف .

ونجد اشارة الى الموالي في بعض كتب الرسول الى سادات القبائل . فلما كتب الرسول عهده لقيس بن سلمة الجعفي ، جاء فيه : « كتابٌ من محمـد رسول الله لقيس بن سلمة بن شراحيل : إني استعملتك على مران ومواليهـا ، وحريم ومواليها والكلاب ومواليها »[5] . وفي النص على ذكر الموالي في هـذا العهد دلالة على انهم كانوا يكوّنون طبقة ظاهرة في (جعفى) .

---

١ ارشاد الساري (٤/٤٣٩) .
٢ الطبري (٣/٢٩٨) ، (ذكر بقية خبر مسيلمة الكذاب وقومه من أهل اليمامة) .
٣ الطبري (٣/٢٩٢) .
٤ الطبري (٣/٢٩٩) .
٥ ابن سعد ، الطبقات (١/٣٢٥) .

وأما (أهل القرى) ، فهم المستوطنون الذين أغراهم عثورهم على الماء على السكن حوله وعلى الاشتغال بالزراعة ، كما استقروا حول مواضع المعادن وفي المستوطنات القديمة التي نسبت الى (طسم وجديس) . فهم طبقة خاصة من أهل اليمامة ، وهم حضر اليمامة ، وأصحاب العمل والثراء ولهم العبيد لحاجتهم اليهم . أما الطبقة الثانية ، فأهل البادية . ممن سكن بيوت الوبر ، ولم يقم في بيوت من طين . ولم يفلح ولم يزرع ، بل كان رزقه على الإبل .

وكان لأهل القرى حصونهم ، يحتمون بها من الأعراب ومن كلّ من يريد بهم سوءاً ، ولهم مخازنهم يخزنون بها طعامهم ، ولهم آبارهم في داخل قراهم وحصونهم ، فإذا حوصروا كان لديهم الماء ، فلا يحتاجون الى مصالحة المحاصر لهم لعطشهم ولعدم وجود الماء عندهم ، وتكون حصونهم عند الحصار قد امتلأت بهم ، وقد أغلقوا أبوابها ، وقد احتلوا أبراجهم وسطوحها لرمي المحاصر بالسهام وبالماء الحار وبالحجارة ، وحولها خنادق تمنع العدو من الدنو من حائط الحصن ، وقد رفعوا جانب الخندق المقابل للحصن حتى يصعب على من يريد تسلقه وتسوره الوصول الى الحصن . وبعض هذه الحصون عالية سميكة الجدران،ذكر (الهمداني) أن جدر (الهيصمية) ، وهي لبني (صُهيب) من (بني قشير) يركض عليها أربع من الخيل ، وكان من الصعب أن ينال رأسها السهم . وذكر عن (القصر العادي) بالأثل ، أنه قصر منيف من عهد (طسم) و (جديس) ، أقيم على حصن من طين ثلاثين ذراعاً دكّة ، ثم بني الحصن . ووصف حصوناً كثيرة بعضها من حصون ما قبل الإسلام ، بنيت لحماية أهلها من الغارات[1] .

و (القصب) دون الحصون ، ذكرها (الهمداني) بقوله : « وبالمذارع وغيرها قصب دون الحصون لطاف تسمى الثنية »[2] . والقصبة القصر أو جوفه ، يقال كنت في قصبة البلد والقصر والحصن ، أي جوفه . والقصب من البلد : المدينة والقرية[3] .

وورد في خبر مصالحة (خالد بن الوليد) (بني حنيفة) ، انه صالحهم

---

١ الصفة (١٥٩ وما بدها) .
٢ الصفة (١٥٩) .
٣ تاج العروس (١/١٣١) ، (قصب) .

« على الرقيق ولم يصالحهم على أنفسهم » ، وأنه أخذ منهم رقيقاً ، كان فيه أمة سندية سوداء ، لم تكن من بني حنيفة ، وانما كانت من رقيقهم ، فصارت الى (علي بن أبي طالب)[1] . وفي وجود هذه السندية في اليمامة دلالة على وجود الرقيق المستورد من الهند في جزيرة العرب في الجاهلية،وقد كانت أسواق البحرين وبقية أسواق العربية الشرقية تشتري الرقيق الوارد عليها من الهند ، فلا يستبعد وصول رقيق السند وغير السند من بلاد الهند الى اليمامة والى أماكن أخرى من جزيرة العرب قبل الاسلام .

ويعرف بائع الرقيق بالنخاس ، والنخاسة حرفته ، والنخاس في الأصل بياع الدواب[2] .

وقد كان تجار الرقيق يشترون الرقيق ويزوّجونه ، ليجنوا نسله لهم ، فيبيعوه في الأسواق . يفعلون ذلك فعل من يربي الخيل أو الإبل أو البقر ، لتكثير نسله وبيعه . وبذلك يكثر مال صاحبه ، وينسب المولد الى الأرض التي ولد بها،والتي يكون سيده مقيماً بها ، والى قبيلة سيده أيضاً ، فيقال هو من مولدي السراة ، وهو من مولدي هذيل .

ويعرف (العبد) المولود في الرق بالوليد . قال بعض علماء اللغة : الوليد من يولد في الرق[3] . و (المولدة) الجارية المولودة بين العرب كالوليدة . وورد عربية مولدة ورجل مولد اذا كان عربياً غير محض[4].وترد لفظة (مولد) ومن (مولدي) في تراجم بعض الأشخاص . فقد كان (أبو كبشة) مولى رسول الله من مولدي (مكة) ، وقيل من مولدي أرض دوس[5] . وكان (أنسة) مولى الرسول من مولدي (السراة)[6] . وكان (أبو مويهبة) وهو من موالي الرسول كذلك ، مولداً من مولدي (مزينة)[7] .

---

١ المعارف (٢١٠) .
٢ تاج العروس (٤/٢٥٥) ، (نخس) .
٣ تاج العروس (٢/٥٤٠) ، (ولد) .
٤ تاج العروس (٢/٥٤٢) ، (ولد) .
٥ ابن سعد ، طبقات (١/٤٩٧) ، الاصابة (٤/١٦٤) ، الاستيعاب (٤/١٦٤) ، (حاشية على الاصابة) .
٦ ابن سعد ، طبقات (١/٤٩٧) .
٧ ابن سعد ، طبقات (١/٣٩٨) ، (ويقال أبو موهبة وأبو موهوبة) ، الاصابة (٤/١٨٨) ، (رقم ١١٠٥) .

وتطلق لفظة (غلام) على الولد الى ان يشب ، ويطلق على الغلام الذي يكون مملوكاً ، أو يخدم غيره . وقد يطلق أيضاً على الكهل[1] . وكان (شقران) ، واسمه (صالح بن عدي) ، غلاماً للرسول ، وكان حبشياً[2] . وكان (سفينة) غلاماً للرسول ، وهو من أصل فارسي[3] . وكان (مدعم) غلاماً للنبي ، وكان من مولدي (حسمى)[4] . وهبه له (رفاعة بن زيد الجذامي) ، ويظهر انه كان من الزنج ، إذ عرف بالأسود[5] . وكان (كركرة) غلاماً للنبي[6] . وكان نوبياً ، أهداه له (هوذة بن على الحنفي اليمامي) فأعتقه[7] . وكان (رباح) غلاماً للرسول[8] . وكان أسود ، وكان يستأذن عليه ، ثم صيره الرسول مكان (يسار) بعد قتله ، فكان يقوم بلقاحه . وكان يؤذن له[9] .

وتطلق لفظة (خادم) و (خادمة) على من يقوم بالخدمة ، خدمة البيت ، أو السفر ، وكل خدمة أخرى يطلبها المالك . وفي حديث فاطمة وعلي : « اسألي أباك خادماً تقيك حرّ مـا أنت فيه »[10] . ويخدم الخدم في البيوت ، يقومون بتنظيفها وبالطبخ والخبز وما شاكل ذلك من أعمال . وكان (أنس بن مالك بن النضر) الأنصاري خادماً لرسول الله . وكان يخرج معه يخدمه ، وهبته أمه للنبي[11] ولم يكن عبداً بل كان حراً من الأنصار ، نذرت أمه ان تجعله خادماً لرسول الله ، ووفت بنذرها ، وكان كثير المال .

ومن خدم رسول الله ، (سلمى) أم رافع ، امرأة أبي رافع[12] ، و(خضرة)[13] ،

---

١ تاج العروس (٩/٥) ، (غلم) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٤٩٧) ، ابن سعد ، اصابة (٢/١٥٠) ، (رقم ٣٩١٦) .
٣ ابن سعد ، طبقات (١/٤٩٨) ، ابن سعد ، اصابة (٢/٥٦) ، (رقم ٣٣٣٥) .
٤ ابن سعد ، طبقات (١/٤٩٨) .
٥ الاصابة (٣/٣٧٤) ، (رقم ٧٨٥٨) .
٦ ابن سعد ، طبقات (١/٤٩٨) .
٧ الاصابة (٣/٢٧٧) ، (رقم ٧٤٠٢) .
٨ ابن سعد ، طبقات (١/٤٩٨) .
٩ اصابة (١/٤٩٠) ، (رقم ٢٥٦٥) .
١٠ تاج العروس (٨/٢٦٩) ، (خدم) .
١١ الاصابة (١/٨٤) ، (٢٧٧) ، ابن سعد ، طبقات (١/٤٩٧) .
١٢ ابن سعد ، طبقات (١/٤٩٧) ، الاصابة (٤/٣٢٦) .
١٣ ابن سعد ، طبقات (١/٤٩٧) ، الاصابة (٤/٢٧٧) ، (رقم ٣٤٤) .

و (رضوى)[1] ، و (ميمونة بنت سعد)[2] . و (مارية) جدة المثنى بن صالح ابن مهران ، مولى (عمرو بن حريث)[3] . و (مارية) المكناة بـ (ام الرباب)[4] و (موهبة)[5] .

الموالي :

ويعد المولى في طبقة المملوكين ، وللفظة (مولى) معان عديدة ، منها المعنى الذي نقصده منها في هذا المكان ، وهو (العبد)[6] . ولا يشترط في المولى أن يكون أعجمياً ، أي من أصل غير عربي ، فيقع الولاء على العرب كذلك ؛ كأن يؤسر ، أو يقع في غنيمة قطاع طرق ، فيكون ملكاً لهم ، يبيعونه في في الأسواق ، أو يطلبون فداءه من إلّه ، وإلا بيع مع الرقيق . وقد كان بمكة وسائر الأمكنة الأخرى عدد كبير من هؤلاء ، ومن جملتهم (زيد بن حارثة ابن شراحيل الكلبي) ، مولى خديجة بنت خويلد ، زوج الرسول ، ثم مولى الرسول . فقد كان من كلب . أصابته خيل من (بني القين بن جسر)، وكان قد خرج مع أمه لتزيره أهله ، فباعوه بسوق حباشة من أسواق العرب ، وهو يومئذ ابن ثمانية أعوام ، ثم أعتقه الرسول[7] .

وكان (ثوبان) مولى رسول الله من العرب من أهل اليمن ، وقيل من السراة ، ابتاعه النبي بالمدينة فأعتقه ، ويظهر انه مات ولم يكن يملك شيئاً[8] . وكان (فضالة) مولى رسول الله من أهل اليمن[9] .

وقد يكون للعبد مالكيْن أو أكثر . كأن يقع في أسر رجلين أو أكثر ،

---

١ ابن سعد ، طبقات (١/٤٩٧) ، الاصابة (٤/٢٩٥) ، (رقم ٤٢١) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٤٩٧) ، الاصابة (٤/٣٩٩) ، (رقم ١٠٢٧) .
٣ الاستيعاب (٤/٣٩٨) ، (حاشية على الاصابة) ، الاصابة (٤/٣٩٢) ، (رقم ٩٨٦) .
٤ الاستيعاب (٤/٣٩٩) ، (حاشية) ، الاصابة (٤/٣٩١) ، (رقم ٩٨٥) .
٥ الاصابة (٤/٣٩٧) ، (رقم ١٠٢٥) .
٦ تاج العروس (١٠/٣٩٩) ، (ولى) .
٨ الروض الانف (١/١٦٤) .
٩ ابن سعد ، طبقات (١/٤٩٨) ، الاصابة (١/٢٠٥) ، (رقم ٩٦٧) .
ابن سعد ، طبقات (١/٤٩٨) ، الاصابة (٣/٢٠٢) .

فيصير عبداً لها أو لهم . أو أن يتشارك رجلان أو أكثر في شراء عبد ، فيكون مملوكاً لمشتريه . وكان بعضهم يتشاركون في شراء العبيد . وقد يبيع بعضهم حصصهم من العبيد لشركائهم أو لغيرهم ، وقد يمنّ بعض منهم على عبده ، أو عبيده ، فيتنازل عن حقه فيه أو فيهم ، ويبقى العبد مملوكاً للشريك الآخر أو لبقية الشركاء ، لحقهم فيه . وكان منهم من يرضى بعتقه على أن يدبر له ما بذمته من حق[1] .

ومن حق سيد العبد بيعه متى شاء ، أو إهداءه الى من يريد . فهو ملك ، ومن حق المالك أن يفعل بما يملكه ما يشاء ويريد[2] .

وقد تضخم عدد الموالي بين أهل الحضر وبين أهل المدر ، حتى صار لهم شأن يذكر ، ولما ظهر الاسلام كان الموالي من العوامل المؤثرة في التوازن السياسي عند الحضر وعند القبائل ، حتى ذكروا في العقود لكثرة عددهم وللحقوق المترتبة لسادتهم عليهم ، فلما عقد الرسول عقده مع وفد (جعفى) من قبائل اليمن ، واستعمل الرسول (قيس بن سلمة) من بني (مرّان بن جعفى) ، كتب له كتاباً فيه : « اني استعملتك على مرّان ومواليها ، وحريم ومواليها ، والكلاب ومواليها »[3] . و (الكلاب) ، أود ، وزبيد ، وجزء سعد العشيرة ، وزيد الله ابن سعد ، وعائذ الله بن سعد ، وبنو صلاءة من بني الحارث بن كعب . ولما عقد الرسول عهده مع (وفد همدان) ، وكتب لقيس بن مالك بن سعد بن لؤي الأرجي كتاباً ، ولاه فيه على قومه ، جاء فيه انه ولاه « على قومه همدان : أحمورها وغربها وخلائطها ومواليها أن يسمعوا له ويطيعوا »[4] . وذكر الموالي مع همدان والأحمور والغرب والخلائط يشير بالطبع الى أهميتهم والى كثرة عددهم في ذلك العهد .

والأحمور : هم قُدم ، وآل ذي مران ، وآل ذي لعوة ، وأذواء همدان . والغرب : أرحب . ونهم ، وشاكر ، ووادعة ، ويام ، ومرهبة ، ودالان ، وخارف ، وعذر ، وحجور[5] .

---

١ ارشاد الساري (٤/٣٠٣) .
٢ الاصابة (٣/٣٧٤) ، (رقم ٧٨٥٨) .
٣ ابن سعد ، طبقات (١/٣٢٥) .
٤ ابن سعد ، طبقات (١/٣٤١) .
٥ ابن سعد ، طبقات (١/٣٤١) .

ولما كتب الرسول الى (ربيعة بن ذي مرحب) الحضرمي وآله ، يدعوه الى الإسلام ، أشار الى (رقيقهم) ، في الكتاب ، مما يدل على أن عددهم كان كبيراً[1] .

بيع الولاء :

وقد نهى الإسلام عن بيع الولاء وعن هبته . وهو أنه إذا مات (المُعْتَق) ورثه شرعاً (مُعْتِقه) حسب قوانين أهل الجاهلية ، وكانت العرب تبيعه وتهبه مع أنه كالنسب فلا يزول بالإزالة . وقد كانوا في الجاهلية ينقلون الولاء بالبيع وغيره ، فإذا أعتق رجل عبده ، صار له حق ولائه ، وله ولورثته حق بيع ذلك الولاء ، على نحو ما كان لهم من حق الحصول على إرثه ، فنهى الشارع عن ذلك[2] .

رزق المملوك :

وما يحصل عليه العبد من عمل يديه ، يكون لسيده ، لأنه ملك يمينه ، مملوك الرقبة . وإذا شهد غزواً أو حرباً فلا يسهم له بسهم في الغنائم ، لكونه مملوكاً[3]. وإذا حارب سيده حارب معه ، وإذا أمر بالاشتراك في غزو أو حرب وجبت عليه الطاعة وبذل النفس في القتال ، دون أن يصيب من غنائمه أي شيء .

وإذا عهد السيد الى مملوكه القيام بتجارة ، فإن التجارة وأرباحها تكون لسيد العبد . وكان الرسول قد أعطى (العباس) عمه عشرين غلاماً ، تجروا بماله[4] . وكان لـ (تميم الداري) خمسة غلمان يتاجرون بالخمر . اسم أحدهم (فتحا)، وكان من بيت المقدس ، فلما رآهم الرسول مع (تميم) قال له : « بعني غلمانك لأعتقهم » ، فقال له تميم : قد اعتقتهم يا رسول الله . و (فتحا) هو الذي

---

١ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٦) .
٢ زاد المسلم (٥/٥٠٣ وما بعدها) .
٣ الاصابة (٢/١٥٠) ، (رقم ٣٩١٦) .
٤ المقريزي ، امتاع الاسماع (١/٦١) .

أسرج مسجد النبي . وكان يسرج بسعف النخل . فقدم (فتحا) بالقناديل والزيت والحبال وأسرج المسجد ، فسماه الرسول (سراجاً)[1] .

واذا أجاز مالك عبد لعبده الاشتغال بالتجارة ، صار من حقه الاتجار حسب ما اتفق عليه . ويقال للعبد المأذون له في التجارة : (المجيز)[2] .

وقد يقرر السيد ضريبة يفرضها على عبده ، يدفعها اليه في كل يوم ، وعلى العبد أداءها له[3] . فيشتغل العبد في السوق أو يقوم بأي عمل يتمكن منه لأداء ما فرضه سيده عليه . ونظراً الى عدم تمكن بعضهم من الوفاء بما فرض عليه ، فقد عمد بعضهم الى السرقة ليسدّ مبلغ ما فرض عليه . وفرض بعض منهم على إمائه أن يزنين ، ليأتين اليهم بما فرضوه عليهن من ضريبة ، فقد ذكر علماء التفسير ان (عبدالله بن أبي بن سلول) كان يكره فتياته على البغاء ، ليأخذ أجورهن ، وروي عن (عبدالله بن عباس) انه قال : « كانوا في الجاهلية يكرهون إماءهم على الزنا يأخذون أجورهن ، فقال الله : لا تكرهوهن على الزنا من أجل المنالة في الدنيا »[4] . وفي منع ذلك وتحريمه نزل في القرآن الكريم : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً »[5] .

وتكون المسبية ملكاً لسابيها ، له أن يصيبها متى شاء ، وله أن يبقيها عنده حتى تموت ، أو يموت هو ، فتنتقل إرثاً لورثته ، وله أن يبيعها متى أراد . وكان منهم من يصيب المسبيات،غير أنه يعزل ، فلا ينزل فيها ، حتى لا يحصل لها الولد المانع من البيع . وذلك لحبهم للأثمان[6] .

ومن الحرف التي شاعت بين الرقيق الحجامة ، وقد كان سادتهم يأخذون أجورهم منها . ومن الحجامين الذين ورد اسمهم في الكتب (سالم الحجام) ، وقد حجم الرسول وشرب دم المحجمة التي فيها دم الرسول تبركاً به[7] .

---

١ الاصابة (٢/١٧) ، (٣١٠٣) .
٢ تاج العروس (٤/٢١) ، (جوز) .
٣ ارشاد الساري (٤/١٣٩) .
٤ تفسير الطبري (١٨/١٠٣ وما بعدها) ، الاستيعاب (٤/٤٠١) ، (حاشية على الاصابة) ، الاصابة (٤/٣٩٤) ، (رقم ١٠٠٣) .
٥ سورة النور ، الرقم ٢٤ ، الاية ٢٣ ، أسباب النزول (ص ٢٤٥ وما بعدها) .
٦ ارشاد الساري (٤/١١٠) .
٧ الاصابة (٢/٦) ، (رقم ٢٠٥١) .

العتق :

العتق خلاف الرق ، وهو الحرية . يقال عتق العبد ، أي خرج عن الرق . ويقال : هو مولى عتاقة ، ومولى عتيق ، إذا كان عبداً فعتق ، فصار مولى لسيده ، تربطه به رابطة الولاء ، فهو في حمايته ورعايته[1] . ولما فتح الرسول مكة عفا عن أهلها وأطلقهم فلم يسترقهم ، فعرفوا بالطلقاء . « وفي الحديث : الطلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف ، بعضهم أولياء بعض في الدنيا والآخرة . وفي رواية : بعضهم أولى ببعض . وفي حديث حنين ، خرج ومعه الطلقاء ، وهم الذين خلى عنهم يوم فتح مكة وأطلقهم فلم يسترقهم ، واحدهم طليق »[2] . والطليق الأسير الذي أطلق أساره وخلى سبيله ، لمنة أراد الآسر أن يمن بها على أسيره[3] .

وقد ينجح العبد المعتق في حياته بعد نيله حريته ، فيصير من ملاك العبيد . ومن بين الصحابة جماعة كانت من الرقيق في الجاهلية ، فلما أسلمت عتقت وتحسن حالها فاشترت لها الرقيق .

المكاتبة :

فالعتق هو فك الرقبة ، وعودة الحرية الى العبد . ومن أبواب فك الرقبة وتحريرها من العبودية المكاتبة ، وهو أن يقول الرجل لمملوكه كاتبتك على كذا منجماً اذا أديته ، فأنت حر ، ويبين عدد النجوم ، وقسط كل نجم : فإذا أدى العبد ما عليه ، صار حراً . وقد عرف ذلك في الاسلام أيضاً . وقد كان (سيرين) والد (محمد بن سيرين) المشهور ، من سبي (عين التمر) فاشتراه (أنس بن مالك) الأنصاري ، وكان كثير المال ، فأراد (سيرين) فك نفسه من العبودية ، وسأل أنساً المكاتبة ، فأبى ، فانطلق (سيرين) الى (عمر) ، فأمره أن يكاتبه ، وتلا عليه « فكاتبوهم إن علمتم ان فيهم خيراً » . وذكر في رواية أخرى ، ان أنساً كاتبة على عشرين ألف درهم ، فأتاه بكتابته ، فأبى ان

---

١ تاج العروس (٣/٧) ، (عتق) .
٢ تاج العروس (٤/٧) ، (عتق) .
٣ تاج العروس (٤٢٥/٦) ، (طلق) .

يقبلها منه إلا نجوماً ، فأتى (عمر) فذكر ذلك له ، فقال : أراد أنس الميراث ، وكتب الى أنس ان اقبلها من الرجل ، فقبلها . وورد في صحيفة المكاتبة : هذا ما كاتب أنس غلامه سيرين . كاتبه على كذا وكذا ألفاً ، وعلى غلامين يعملان مثل عمله[1] . وكاتب (عبدالله بن عمر) غلاماً له يقال له شرف على خمسة وثلاثين ألف درهم ، فوضع من آخر كتابته خمسة آلاف[2] .

وذكر (الدميري) ان (المكاتبة) لفظة اسلامية[3] . ولكني أشك في صحة هذا الرأي ، لأن التكاتب كان معروفاً عند الجاهليين ، وهو عقد من العقود ، يؤدي العبد بموجبه ما فارقه عليه من أداء المال ، فإذا أداه استحق العتق ، وإن عجز عن أداء نجم يحل عليه ، فلسيده تعجيزه[4] . ودليل ذلك ما ورد عن المكاتبة في القرآن الكريم من قوله : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم ، فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً »[5] . فنسق الآية يدل على وجود التكاتب عند الجاهليين ، واذا وجد ، فلا يستبعد استعمالهم لفظة (المكاتبة) قبل الاسلام .

أما (التنجيم) ، فمن (نجم المال) ،إذا أداه نجوماً ، أي يؤديه عند انقضاء كل شهر منها نجماً ، حتى أنهم كانوا يؤدون الديات نجوماً . قال زهير في ديات جعلت نجوماً على العاقلة :

ينجمها قوم لقوم غرامـــة ولم يهريقوا بينهم ملء محجم

« وفي حديث سعد : والله لا أزيدك على أربعة آلاف منجمة تنجيم الدين . هو أن يقدر عطـــاؤه في أوقات معلومة متتابعة مشاهرة أو مساناة . ومنه تنجيم المكاتب »[6] . ويظهر من ذلك أنهم كانوا في الجاهلية ينجمون حق العتق،ويكتبون بذلك كتاباً .

---

١ ارشاد الساري (٣٢٩/٤) ، (باب المكاتب) ، تفسير الطبري (٩٨/١٨ وما بعدها)
٢ تفسير الطبري (١٠١/١٨ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (٤٤٥/١) ، (كتب) .
٤ تاج العروس (٤٤٥/١) ، (كتب) .
٥ سورة النور ، الرقم ٢٤ ، الاية ٣٣ ، تفسير الطبري (٩٨/١٨ وما بعدها) .
٦ تاج العروس (٧٢/٩) ، (نجم) .

وكان منهم من يوصي بفك رقبة عبد له ، أو أمة بعد وفاته . وللفقهاء آراء في بيع (المدبر) ، وهو العبد الذي علق سيده عتقه على الموت[1] .

سوء حالة العبيد :

ونظراً الى ما كان يعانيه الرقيق من معاملة غليظة شديدة قاسية ، ومن قسوة ينزلها بهم أصحابهم عند صدور أي شيء منهم لا يرضى عنه أصحابهم ، فقد فرّ كثير منهم من ساداتهم ، وخرجوا على أمرهم ، فأبقوا مع علمهم بما في الإباق من عقوبة صارمة يدخل فيها قتل الآبق . وانضم بعض منهم الى الخارجين على عرف قبيلتهم من الضلال والصعاليك والخلعاء وألفوا عصابات أخذت تعتدي على المارة وتغزو العشائر ، فتصيب منها مغنماً . وقد تكتل قوم من كنانة ومزينة والحكم والقارة ومن اتبعهم من العبيد في جبل تهامة ، وأخذوا يغتصبون المارة ، وقد كتب اليهم الرسول ، انهم إن آمنوا بالله وبرسوله وعملوا بسنة الاسلام ، فعبدهم حرّ ومولاهم محمد . ومن كان منهم من قبيلة لم يرد اليها ، وما كان فيهم من دم أصابوه أو مال أخذوه ، فهو لهم ، وما كان لهم من دين في الناس رد اليهم[2] . ويظهر أنهم كانوا قد هددوا الأمن في ذلك الوقت ، وقطعوا السبيل ، مما أدى بالرسول الى الكتابة اليهم بالدعوة الى الإسلام وبترك الفتنة .

وقد فرّ بعض الرقيق من ساداتهم ، ودخلوا في الاسلام ، وقد خاف سادات قريش والطائف من هذه الظاهرة ، لما قد تتركه من أثر عليهم وعلى أوضاعهم الاقتصادية ، والعبيد ركن قويم في نظمهم الاقتصادية ، فحسنوا بعض الشيء من أحوال رقيقهم ، وشددوا على من شعروا ان في نفسه ميلاً الى الاسلام .

وقد أمر الاسلام بالعطف على الرقيق ففي القرآن : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم . إن الله لا يحب

---

١ ارشاد الساري (٤/٣١٣) .

٢ ابن سعد (١/٢٧٨) .

من كان مختالاً فخوراً »[1] . وفي كتب الحديث أحاديث في الحث على إنصاف المماليك ، أي الرقيق . منهـا حديثه : « إن اخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس،ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم مـا يغلبهم فأعينوهم »[2] . وحث في أحاديث أخرى على إنصاف الجواري والاحسان اليهن ، وعتقهن وتزويجهن إن أمكن[3] . كما حث العبيد على خدمة سادتهم باخلاص . ونهى سادة الإماء من اكراههن على الزنا ، لأخذ أجورهن[4] .

تعرب العبيد والموالي :

وقد أشار أهل الأخبار الى أقوام من العبيـد ، تعربوا واستقروا فصاروا من العرب . كما أشار الكتبة اليونان واللاتين الى أقوام من الأعاجم نزلت سواحـل جزيرة العرب ، لأغراض تجارية وعسكرية ، فأقامت بهـا واستقرت ، وتعربت ونسيت أصلها ، واتخذت نسباً عربياً . وقد عثر الباحثون والمنقبون المحدثون على بقايا هياكل بشرية ، وبقايا عظام بشر،في مواضع متعددة من السواحل والبواطن ، تدل على ان أصحابها من الأعاجم ومن الافريقيين الوافدين على جزيرة العرب ، وقد أقاموا واستقروا بها وماتوا فيها. كما سبق أن تحدثت عن ذلك في الجزء الأول من هذا الكتاب .

ومن المتعربة قوم عرفوا بـ (الصعافقة) . قال أهل الأخبار إن آباءهم كانوا عبيداً استعربوا أو أنهم كانوا قوماً من بقايا الأمم الخالية ضلت أنسابهم . وقـد ذكروا أن مساكنهم كانت في اليمامـة في موضع يقال له (صعفوق) ، به قناة يجري منها نهر كبير ، أو أنهم بالحجاز . وقيل ان (الصعافقة) خول لبني مروان ، أنزلهم اليمامة ، ومروان بن أبـي حفصة منهم[5] .

---

١ النساء ، الرقم ٤ ، الاية ٣٦ ، تفسير الطبري (٥/٥٠) .
٢ ارشاد الساري (٤/٣٢٠ وما بعدها) .
٣ المصدر نفسه .
٤ المصدر نفسه كذلك .
٥ تاج العروس (٦/٤٠٧) ، (الصعفوق) .

السخرة :

السخرة، تكليف شخص وقهره على ما لا يريده . وسخره تسخيراً أذله وكلفه ما لا يريد وقهره وأجبره على عمل بلا أجرة ولا ثمن[1] . وقد عرفت السخرة في العربية الجنوبية ، إذ كانت تلك الحكومات تقوم بإنشاء الأبنية العامة والطرق والجسور والسدود ، وبتشييد القصور على طريق (السخرة) . وهي طريقة كانت معروفة في كل أنحاء العالم في ذلك الوقت ، وكانت معروفة الى عهد قريب . وذلك بأن تطلب الى الموظفين والى المدن والقرى وسادات القبائل تقديم ما يتمكنون من تقديمه من أتباعهم لتشغيلهم قسراً بأعمال تريد القيام بها . فيقدم كل منهم ما يتمكن من جمعه ، ويساقون سوقاً الى مكان العمل للعمل هناك حتى ينتهي العمل.

وتتكلف الحكومة الانفاق على العمال الذين تكلفهم القيام بالأعمال العامة ، تدفع اليهم عطاياهم ، وتعرف بـ (شبو) ، وتعني (الرزق) عيناً ، وذلك بأن تقدم اليهم الطعام اللازم لعيشهم في مقابل اشتغالهم بتلك الأعمال ، كما يقوم المعبد بتقديم ذلك اذا كان المعبد هو صاحب العمل[2] . وترد لفظة (أشبى) بمعنى أعطى في عربية القرآن الكريم[3] ، وهو معنى قريب من معنى لفظة (شبو) في لغة المسند .

والسخرة عمل مرهق ، يقوم به المسخر المسكين دون مقابل ، فهو لا يحصل وهو في موقع العمل حتى على أكل بطنه إلا بشق الأنفس ، من الإهمال وسرقة القوت وسوء الاستعمال ، ثم انه قد يحبس أياماً وأشهراً وهو في هذا الوضع ، لا يدفع له شيئاً ليستعين به في تمشية أموره ، أو في إعالة عائلته البعيدة عنه ، اذا كان متزوجاً ، أو معيلاً لأهله ، وطالما تعرض للمرض ، ومنهم من كان يموت من الارهاق والجوع ، ولذلك ، كان الهرب من السخرة شيئاً مألوفاً ، على الرغم من تشديد الحراسة على معسكرات العمل ومواضع تجمع المسخرين ، وعلى الرغم من العقوبات الشديدة التي تفرض على الهارب في حالة القبض عليه .

---

١ تاج الغروس (٣/٢٦٠) ، (سخر) .

٢ Glaser 1150, Halevy 192, 199.

٣ القاموس (٤/٣١٦) ، تاج العروس (١٠/١٩٢) ، (شبا) .

وكانت الحكومات تسرف في استخدام السخرة وتشتط، فتنجز بالسخرة كثيراً من الأعمال التي هي من صميم عملها وواجبها . ولن يتأثر بالسخرة إلا الطبقات الفقيرة التي لا تملك دفاعاً عن نفسها ، ولا تجد من يساعدها ويعاونها . أما سادات القبائل ووجوه البلد والأشراف وأصحاب الأرض،فلا تقع السخرة عليهم ، وإنما يرسلون ما يطلب منهم من أتباعهم للقيام بالأعمال المطلوبة ، وقد يسخرونهم لأداء أعمال خاصة بهم ، لا صلة لها ولا علاقة بالأعمال العامة وبالنفع العام . ثم إن مفهوم القيام بالأعمال العامة وبالاشتغال بمشاريع النفع العام ، لا يطبق لدى هذه الحكومات ولدى بعض الحكومات حتى في هذه الأيام إلا على هذه الطبقات الفقيرة ، فعليها وحدها القيام بهذه الواجبات . ومثل هذه النظرة الى السواد الأعظم من الأمة ، جعل هذا السواد يكره حكوماته ، ويكره الحاكمين ، ويتهرب من الخدمة ما أمكنه ذلك ، لأنه لا يشعر بحكومة تعطف عليه ، ولا بحاكمين ينظرون الى مصالحه ، وإنما هم ينظرون إلى أنفسهم على أنهم هم الناس ، وأما أبناء الشعب فإنما خلقوا لخدمته ليس غير .

ولما قام أبرهة باصلاح سد (مأرب) ، طلب من الأقيال وسادات القبائل وأصحاب الأرض مدّه بالمسخرين ، فأرسلوا اليه ما طلب منهم ، واشتغلوا في اصلاح السد وفي العمل على رتق ما صدع منه . فقاموا بنقل الحجارة الصلدة من مواضع مقالع الحجر ، وعملوا مسخرين في أعمال البناء ، ولم يدفع لهم شيئاً سوى الأكل ، وقد بقوا هناك حتى تم العمل ، فسمح لهم بالعودة الى ديارهم .

والمفروض في أخذ المسخرين من المدن والقرى والقبائل ، أن يكون ذلك متناسباً مع عدد السكان ، وعدد رجال القبيلة . فالمدينة الكبيرة تقدم عدداً يزيد على ما تقدمه المدينة الصغيرة أو القرية ، والقبيلة الكبيرة تقدم عدداً يزيد على عدد ما تقدمه القبيلة الصغيرة ، غير ان ذلك لا يطبق بصورة عملية ، فالعادة أن تفرض الأعمال الشاقة على الضعفاء والفقراء ، ورُبَّ قرية تقدم من المسخرين ما يزيد على ما تقدمه مدينة كبيرة . وهكذا الحال بالنسبة الى القبائل الضعيفة والقبائل القوية .

وقد كان الرقيق في أوائل من استجاب الى الإسلام ، تخلصاً من رق العبودية ، كان العبد إذا استطاع التخلص من سيده ، ودخل في الإسلام صار حراً طليقاً . وهذا مما أغضب سادة قريش وغيرهم من الملأ أصحاب العبيد ، وجعلهم يقولون : إن محمداً قد أفسد علينا عبيدنا . ولما حاصر الرسول (الطائف) نزل اليه رقيق من رقيق أهل الطائف ، فأسلموا واعتقوا [1] ، وجعل الرسول ولاء هؤلاء العبيد لسادتهم حين أسلموا [2] ..

---

١ البلاذري ، فتوح (٦٧) .

٢ الاصابة (٢/٤٥٤) ، (رقم ٥٤٤٥) .

obeikandl.com